

الطقوس وأداب السلوك من أصول الثقافة البشرية

دراسات في الطقوس من ظاهرة القرابين إلى نصوص الشرائع



الطقوس تلغي العدوان والعنف

آداب التحية تتعلق بالسلوك والتصرف، ولكنها ليست السلوك ولا التصرف وإنما هي الهيئة أو الملكة التي في النفس والتي يصدر عنها فعل التحية فهي منبع ذلك السلوك.

ولاحظت حفصية أن تعلم تلك الآداب يرتبط بعملية التكرار أو العادة "التي تصبح في ما بعد طقساً". إذا، ترتبط آداب التحية بعملية التكرار، وتغيد جميعها الإكتساب والتعلم بعد التكرار، الذي يتحول إلى عادة أو عرف اجتماعي لا يمكن أن يمارس إلا بالحياة في المجتمع والارتباط بمسئليته "في المقابل تجد عادات أخرى تكون فردية، فتنم عن سلوك فردي وظاهرة شخصية تمارس في حالات العزلة عن المجتمع مثل عادات الناسك".

وتابعته أن الناظر في التحية عامة، والتحية في الخطاب الديني خاصة، يرى كونها مظهراً من مظاهر السلوك الجمعي المتكرر، وهي أسلوب في الحياة والتفاعل داخل المجموعة متكرر ومكتسب ومتعلم وممارس ومتوارث اجتماعياً وخاضع لقواعد ملموسة جعلته دعامة ثقافية مهمة. وتخضع التحية لمجموعة من النواميس التي تختلف من حيث درجة الإلزام، فمنها ما يكون حضوره إجبارياً يخل غيابه بالمنظومة الطقسية الاجتماعية، ومنها ما يشهد بعض اللبونة في مستوى الحضور والغياب.

التي تحكم التحية في الخطاب الديني؟ كيف تبسب؟ هل تعد فعلاً علامات دالة على الطقسية؟ هل بإمكاننا الحديث عن طقسية التحية في ما يخص التحية الإسلامية؟ ما هي مستويات طقسية هذه التحية الإسلامية؟ أتعد تلك الطقسية تعبيراً عن مجموعة من الأحكام والضوابط ذات المرجعية الفقهية الدينية أم أنها تتجاوز ذلك لتكتسب بعداً رمزياً أشمل يستند مشروعيتها من المنظومة الاجتماعية؟

وقالت "تجنح الآداب إلى الحكم على أشكال السلوك الكثيرة المتفاوتة، فتحيد موقفاً من المواقف وتستحسنه، وتدم موقفاً آخر وتستقبله، تأسر وتتهنئ، تبيع وتمنع، فتحدد بوجه الإجمال السلوك تحديداً منهجياً واعياً تنظم من خلاله الحياة الإنسانية تبعاً لمبادئ وقوانين موضوعية يمكن أن تصبح في ما بعد فرضاً. ولا يخرج الحديث عن آداب التحية إطلاقاً عن هذا الحد الذي تضحي فيه التحية كياناً خاضعاً للتخزين والوضع والتنشيد والتهديب طبقاً لثائقه مخصصة أهداف واضحة، فتكون بذلك، بادئها ذات أبعاد متعددة: بعد نفسي يعنى علاقة الفرد بنفسه وبربه، وآخر اجتماعي وهو معاملته وتفاعله مع الناس وسلوكه في المجتمع، وبعد ميتافيزيقي وهو عقيدته وقيمه ومُثله. يمكننا القول إن

والرد على المحدثات وأهل الأهواء والبعد. وقد اعترض ابن خنبل حتى على قراءة القرآن عند زيارة القبر، ثم تراجع بعد ذلك، ولابن تيمية باب في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" عنوانه "في بدع القبور والمزارات والمشاهد والآثار". وله في مجموع فتاويه فصول تتعلق بما سماه بدعة زيارة القبور، وله كذلك كتاب عنوانه "الجواب الباهر في زوار المقابر" خصصه للإجابة عن سؤال من السلطان إن كانت زيارة المقابر شرعية أم لا؟

ولفتت إلى أن الأجيال في ثقافات عديدة درسها الباحثون متربدون بين الحزن على هذا الفقد والخوف من روحه التي غادرت جسده، وصارت مرعبة مقدسة. وهذا التردد يصاحبه هؤلاء حتى بعد الدفن وبناء القبر بين إباحة زيارة هذا الميت وتحريم ذلك. فقد تردد النبي بين الدعوة إلى الاهتمام بالقبور والخوف من عبادتها، ومثلما تردد النبي تردد العلماء والفقهائين بين إباحة الزيارة وتحريمها، لكن نص ابن القيم، وهو جامع لجملة ما سبقه من نصوص وآراء للسلف العلماء، ترك لنا ما يشبه القرار النهائي بعد مد وجز، ويمثل ذلك القرار النهائي في ضبط هذا الطقس المرتبط بالموت ضبطاً واضحاً جامعاً بين جملة من المحرمات التي يجدر اجتنابها وشعائر بسيطة لها وظائف معلومة. وتساءلت الباحثة حفصية سعيدي في دراستها المعنونة بـ"طقوس التحية في الخطاب الديني" ما القوانين

وينهاهم عن القبايح" (ابن منظور، مادة ادب). وتظهر هذه الأخلاق في السلوك الذي يُطلب تكراره. ولفظ آداب ذو بعد تاديب تهييبي؛ إذ أدب علم وروض وهذب، والأدب الظرف وحسن التناول. وهكذا تدل كلمة آداب على حسن السلوك والتأديب والتهديب والمجاملة واللباقة، فيرتبط المصطلح بطقوس التفاعل الإيجابية التي تيسر اللقاء، وبالطقوس السلبية التي تصلحه وترممه. إن آداب السلوك طقوس تلغي الوقاحة والفظاظة والعدوان والعنف".

من الطقوس الإسلامية

في دراستها تتوقف الباحثة زينب التجاني مع طقس زيارة القبور عند المحدثين، حيث رأت أن زيارة القبور ممارسة لا تزال قائمة بين الناس، على الرغم مما فعلته الوهابية من هدم للأضرحة والمشاهد والقبور والدعوة إلى التخلي عن العادات الموروثة والمعتقدات المرتبطة بها. وقد اعتمدوا في ذلك على موروث ديني انتقوا منه الأحاديث والأحكام التي يبررو بها كل ما فعلوه من هدم وحرق وتكفير.

قالت إن "زيارة القبور موضوع من الموضوعات السنّة تُذكر عادة في الفصول المتعلقة بالجائز، وقد اهتم العلماء المسلمون بهذه الآداب، فخصصوا لها أبواباً وفصولاً توضح شعائرها الحميدة والأدوية. ويعد نص الحسن البصري أقدم النصوص في آداب زيارة القبور،

إن الطقوس أشكال لغوية وغير لغوية منظمة تنظيمياً يضمن نجاحها فلا تكون تلقائية، بل تخضع لقواعد وتتميز بالتكرار وبعدها الرمز، وتتكون من رُتَب وعناصر طقسية من فواعل وأشياء وحركات وهيئات وكلمات وأطر مكانية وزمانية. ولا تخلو ثقافة من الطقوس حتى عدّها البعض أصل الثقافة، ورأى البعض الآخر أن الأشكال الطقسية التواصلية التفاعلية إحدى مكونات المجتمعات البشرية.

وطقوس المسارة والطقوس السحرية والملكية.

ولفتت الميساوي إلى أنه من المقاربات المفيدة مقارنة آرثر هوكر (1954) التي أعاد إليها لوسيان سوكوبال الاعتبار في مقدمته لكتاب "في البدء كان الطقس". وأفاد هوكر بأن الطقس هو أصل الثقافة، وأن كل الطقوس تتحد في حفاظها على الحياة والدفع بالأفراد والجماعات نحو الاستقرار والأزدهار. واكتشف أن الملوك الأوائل ضحايا قربانية رمزية، وأن القرابين البشرية، طقساً، هو أصل كل القرابين فيكون جدّو الموت والبعث أهم ما يميز الظاهرة الطقسية، ويرسخ وظيفة الطقس التعبيرية والرمزية.

وقد وجد إروان دينتال في هذه المقاربة بواندر نظرية ريتي جيرار الواردة في كتاب "العنف والمقدس" (1972). فالعنف المبني على الشوق المحاكاتي عند جيرار هو أس الثقافة، ووظيفة الطقس القرابين الضغط على العنف والصراع المحاكاتي بتحويله إلى كيش فداء (1982). وقالت الميساوي "لغت انتباهنا

الآثار والفصول التي تحمل عنوان 'آداب السلوك'، أو 'الجامع في الآداب'، أو 'آداب الشريعة'، أو آداب كذا، وهي نصوص فقهية في آداب التحية والأكل والشرب والملبس والنمّاء ودخول الحمام وقضاء الحاجة والنكاح ومعاشرة النساء وتربية الأولاد والخدم. ومنها ما هو في آداب المساجد والسوق وحمل القرآن والغنم والقضاء والتعليم والدعوة والضيافة. ويظفر قارئ هذه النصوص بخطاب وافر ذي طابع معياري يقدم الطريقة التي يتمثل بها العقل الفهني قواعد السلوك اليومي الضاغطة على الغرائز الفردية والموجهة للتأسس العاديّة ومختلف أشكال التفاعل في أطر اجتماعية متنوعة".

وأضافت "ولما كانت هذه القواعد منتظمة، مكررة، فإنها من وجهة نظر علم اجتماع التفاعل وعلم اجتماع الحياة اليومية، طقوس خاصة، وإنها إلى جانب طابعها التكراري دالة رامزة. وينطبق المفهوم نفسه على آداب الفقير والمريد والصحة وحسن المعاشرة. التي تشير إليها نصوص المفيدة بطقسية سلوك فئة من فئات المجتمع".

وتابعت "في الأدب خصوص في آداب الملوك والأمراء والوزراء والقضاء والظرفاء، وآداب المنازمة والتهاني والتعازي والتهادي والصيد والغناء والحرب. إن حلتناها نظراً بطقوس ملكية وطقوس حربية وطقوس لعبية وطقوس لياقة. إن عبارة آداب ذات بعد أخلاقي؛ لأن الأدب يُؤدب الناس إلى المحامد

محمد الحماصي

كاتب مصري



اهتم علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا وعلوم التواصل بالطقوس، وانتهت مختلف الدراسات، على تنوع مناهجها، إلى أن الطقس ظاهرة اجتماعية ونسق ثقافي تواصل. وهذه الدراسات النظرية التي ضمها كتاب "دراسات في الطقوس" بإشراف الباحثة سهام الدبابي الميساوي، وقدمها الباحثون يسر الموليوي وهاجر التركي وزينب التوجاني وظافر البلطي وحفصية سعيدي وأيمن بن حمودة، تفتح أفق البحث في الطقوس العربية والإسلامية، فتعني على فهم ما يوجد في الواقع من ممارسات، وعلى تناول نصوص عربية تصف الطقوس، وهي كثيرة؛ منها نصوص في طقوس الطهارة والصلاة والصوم والطقوس القرآنية وطقوس العبور والطقوس الزراعية والسحرية، والطقوس الاحتفالية "المواسم والأعياد".

القرآن والآداب

في تقديمها للكتاب، الصادر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، استعرضت الباحثة الميساوي أبرز البحوث الغربية المنظرة للطقوس، ومنها كتاب روبرتسن سميت عن ديانة الساميين، والذي انتهت فيه إلى أن القرابين هي محور عباداتهم وأن أكل القرابين والإشتراك في المائدة القرآنية أهم من الفعل القرآني نفسه، وأن وحدة الشعور الناتجة عن تناول القران سابقة لمفهوم القران.

الطقس هو أصل الثقافة

وكل الطقوس تتحد في حفاظها على الحياة والدفع بالأفراد والجماعات نحو الاستقرار والأزدهار

كما تناولت تغليز إميل دوركايم للظاهرة الطقسية، حيث اعتبرته أول المنظرين للظاهرة الطقسية في كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية"، حيث إن الدين عنده مجموعة من المعتقدات والطقوس. وتطرق إلى اهتمام جيمس فريزر في كتابه "الغصن الذهبي" بالمعتقدات والأساطير والمحرمات وتعرض للطقوس القرآنية والزراعية

بطولات قصص العمانية آية السيابي نساء ضد الواقع

دون الإفاضة، وبالتمليح دون التصريح، لكنها إلى ذلك لغة نافذة موجهة، تضعك أسماء المشاهد الصارخة مباشرة دون مقدمات، فتشعر بالملحمة وهي تغوص عميقاً في الوجدان".

القصص تقدم حكايات

بطولات لا تعرف هل هن

محض خيال أم إنهن

انعكاس لواقع نساء

يعشن بيننا

وأضاف العنوم "امتلكت الكاتبة في هذه المجموعة قلباً شجاعاً، ورأياً حراً، هكذا تكون الكتابة الحقيقية. لقد تخلت كثيراً من السود من أجل أن تنقل الحقيقة، فلمها مثل مبعض الجراح، يشق لكي يخرج الدم، من النزيف يكون بره الجرح أحياناً، قلمها من ناحية أخرى عين رائية ناقبة، تدخل قلب المجتمع فتصور لنا أمراضه وماسيه، وتجعلنا نعيش تلك الأحوال كأننا جزء منها، فناسي ونالم، ولكننا في النهاية نعرف الحقيقة دون مواربة".

متكافئاً ليعطل هذا الدوران، تردد ليانا باكية: نحن كائنات ياتي علينا كل الدهر ولا تكون يوماً شيئاً مذكوراً". وفي تقديمها للمجموعة، تتساءل الشاعرة عائشة السيابي "هل هي حكايات نساء من محض خيال أم إنه انعكاس لواقع نساء يعشن بيننا؟ أم قصص نساء سيعشن السنين من جديد مع تعديلات طفيفة؛ إنها ليست الحكايات فقط ما يُكتب في هذه المجموعة لكنها المشاعر والانثيايلات والأوجاع والتفاصيل التي لا تسمع على الملأ ولا حتى خلف الأبواب الموصدة، لكن قلم الكاتبة ما يلتقطها ويحفر فيها ويحولها إلى نصوص تقرأ في هذه المجموعة".

ويتشكل السرد في قصص السيابي من خلال انتقاء أحداث متراكبة ومتعددة تؤشر على وحدة التجربة الوجودية الأنثوية. وخلال ذلك تنشأ روابط منطقية بين الأحداث والموضوعات التي تتناولها، مما يفتح في النهاية نافذة مشرعة على العالم ومحافظه على رؤيته ضمن فضاء الواقع، وهذا ربما ما دفع الكاتبة إلى

الشخصيات التي يمكنها أن تحمل فكرتها وتعبير عنها، بمعنى أن الفكرة التي تريد إيصالها هي محور اهتمام السرد.

وتروم القصص إلى إمتاع المتلقي وإطلاعه على ثقافات جديدة مختلفة عن ثقافته الأصلية، وأيضاً إثارة اهتمامه بمواضيع تتعلق بوضع النساء في أنحاء حالة واحدة ومعاناة واحدة، وإن اختلفت تفاصيل هذه المعاناة وحيثياتها وأسبابها، أو بمعنى أن هناك وحدة حال للمرأة مهما كان مكان إقامتها، مثال ذلك قصة "طلحة" التي تتناول فيها الكاتبة معاناة عاملة منزل أسبوعية تترك طفلها وتسافر للعمل في دولة بعيدة.

ولمزيد من النقد الواقعي لحال المرأة التي تتكرر لتجعل الآلاف من النساء شريكات في المعاناة نفسها، تضع الكاتبة في نهاية القصة صورة مؤلمة لأحد الأحياء الفقيرة في ذلك البلد الأسبوعي "في أحد الأيام وأثناء انهماكها الشديد بمسؤولياتها، دخل سيدها لينقل لها خبر وقوع زلزال مدمر بلغت قوته 7.5 ريختر، وقد أودى بحياة العشرات من الناس، ولم يحصر العدد بشكل كامل حتى ذلك الحين. بعد عشرة أيام من الزلزال يستفيق الحزن من غفوته، بهطل

عبر الرمز مرة، وبالتصريح المباشر مرة أخرى.

تبنى السيابي قصصها، الصادرة عن "الآن ناشرون وموزعون" في عمان (2021)، في حبكة سردية متقنة، وهنا يمكن القول إن الكاتبة تعتمد أولاً إلى اختيار الفضاء العام الذي تتحرك فيه الأحداث، ثم تختار



شخصيات نسائية يحاصرها واقع مأزوم (لوحة للفنانة هيلدا حياري)